

الفصل الأول

مقدمة في علم الاجتماع في عصر العولمة



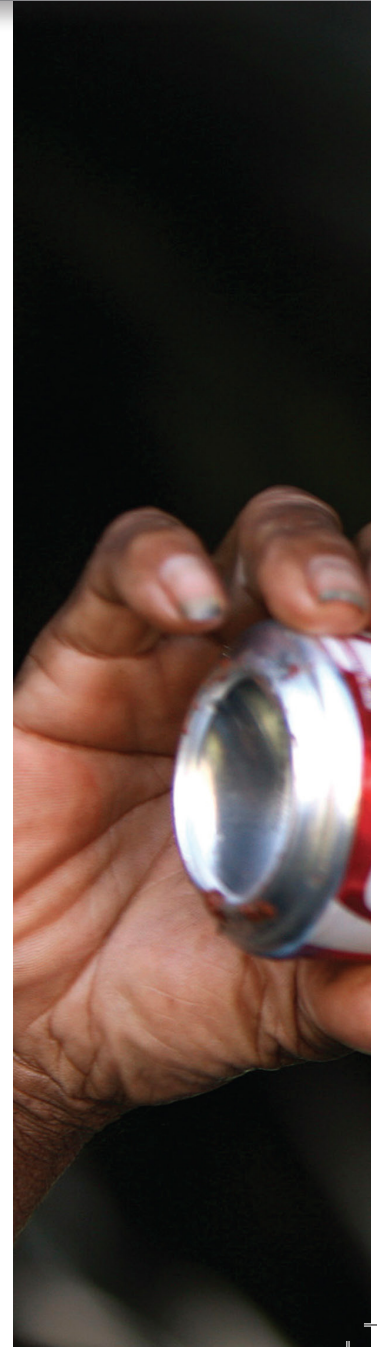
1

An Introduction to Sociology In The Global Age

أهداف التعلم

- 1- قم بتحديد التغيرات الاجتماعية الكبرى منذ ثمانينات القرن التاسع عشر والتي قام علماء الاجتماع بدراستها.
- 2- قم بشرح سبب تركيز علماء الاجتماع اليوم على الاتجاهات السائدة في العولمة والاستهلاك.
- 3- قم بوصف ما تعنيه مكذنة المجتمع.
- 4- قم بشرح مدخل علم الاجتماع إلى دراسة الحياة الاجتماعية، ويتضمن استخدام التخيل الاجتماعي وفحص العلاقة بين المشكلات الخاصة والقضايا العامة.
- 5- قم بالتفريق بين الغرضين المحتملين لعلم الاجتماع: العلم والإصلاح الاجتماعي.
- 6- قم بتقييم الطرائق التي تختلف بها معارف علم الاجتماع عن التفكير الفطري.

الزعيم «راؤوني»، قُبل مظهرة أمام الكونجرس البرازيلي حيث كان يطالب بحقوق الأمريكيين الأصليين في الأرض، والتعدين، والماء. ولكونه مدافعاً معروفاً عن الغابات المطيرة، يرتدي راءوني رقائق خشبية مُط شفته السفلى. يتساءل علماء الاجتماع كيف أن أشخاصاً مثل: «راؤوني»، وجماعات مثل هنود البرازيل، ومؤسسات مثل الحكومة يؤثرون في بعضهم بعضاً.





في ديسمبر عام (2010)، اكتسحت تظاهرات الشوارع، وإضرابات العمال، وغيرها من الحركات دولة تونس الصغيرة الواقعة شمال أفريقيا. واجهت هذه التظاهرات مقاومة قوية من الحكومة التونسية. ومع ذلك، استمرت احتجاجاتهم حتى عام (2011)، متسببة في النهاية في الإطاحة بالرئيس بن علي بعد عامه الـ (23) في السلطة.

المفجر الفوري للاحتجاجات التونسية كان إحراق الشاب محمد بوعزيزي لنفسه، وقد كان أحد بائعي الشوارع، في السادسة والعشرين من العمر والذي كان يشتكي من المعاملة السيئة والإذلال المستمر من السلطات. أحرق بوعزيزي نفسه أمام مبنى البلدية ومات في مركز للحروق والصدمات بعد (18) يوماً دون أن يعود إليه الوعي خلالها.

ومهما كانت قوة رد الفعل على موت بوعزيزي، فإن أسباب قيام الثورة التونسية و«الربيع العربي» - موجة القلاقل الاجتماعية والثورة الاجتماعية التي أثارته في كل المنطقة - تنبع بشكل مؤكد من أكثر من مجرد حادثة احتجاج وحيدة. ومن دون اعتبار الظروف الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية لتونس ما قبل الثورة، سيكون من المستحيل علينا أن نفهم لماذا أشعل بوعزيزي النار في نفسه، ولماذا رأى الآلاف من التونسيين وغيرهم عبر العالم العربي أن تصرفه هذا هو صحية كافية - وضرورية - من أجل التغيير. لم يتحقق الحلم الموعود للربيع العربي بعد - إن الإطاحة بالرئيس الإسلامي المنتخب محمد مرسي منتصف عام (2013) أدى إلى اجهاضها، على الأقل جزئياً. ومع ذلك، فالأحداث التي عجلت بحدوث هذه القلاقل ما تزال مهمة للشرق الأوسط، وللعالم ككل، ولعلم الاجتماع، ولكم أنتم. وأحد أهداف هذا الفصل، وهذا الكتاب هي أن يريك سبب ذلك.

كفرع معرفي أكاديمي، كان علم الاجتماع في المعتاد يحاول بشكل تقليدي فهم مكان الفرد - حتى لو كان بائع شوارع تونسي - داخل المجتمع، وأثر المجتمع على الفرد. ومع ذلك، في عصر العولمة الحالي، أصبحت الأبنية الاجتماعية مثل شبكات الإنترنت التي تعبر الحدود القومية وتكنولوجيات الاتصال سريعة التغيير التي تنشر المعلومات لمسافات بعيدة وعلى نطاق واسع غيرت للأبد من الطرائق التي تتفاعل بها مع بعضها بعضاً، وكذلك المجتمعات التي تقوم بتشكيلنا. ولأن العالم يصبح أكثر وأكثر عولمة، فقط طور علم الاجتماع منظوراً أكثر وأكثر عالمية.

علم الاجتماع يحاول فهم مكان الفرد في المجتمع، وأثر المجتمع على الفرد.

أحد أهم الدروس التي ستتعلمها في دراستك لعلم الاجتماع هو أن ما تفكر فيه وتفعله كفرد يتأثر بما يحدث في الجماعات، والمنظمات، والثقافات، والمجتمعات، والعالم. وهذا حقيقي بشكل واضح بالأخص مع التغيرات الاجتماعية، حتى تلك التي تكون عالمية في نطاقها وتبدو للوهلة الأولى بعيدة جداً عنك. خذ على سبيل المثال سبب قيام الربيع العربي. أدى الانتحار العلني لمحمد بوعزيزي إلى تحريك ثورة في تونس وعبر جزء كبير من العالم العربي. جذور هذا الفعل العنيف للاحتجاج تكمن في الفقر، ونسبة البطالة المرتفعة، والسلطة الظالمة، والفساد السياسي والتي أثرت جميعها على بوعزيزي شخصياً. قبل أفعاله هذه، لم يكن معظم التونسيين ليخاطروا بحياتهم للاحتجاج ضد حكومة دولتهم الظالمة، ومع ذلك فإنه هو وعشرات الآلاف غيره في دول أخرى بالمنطقة فعلوا هذا ببساطة.



التأثيرات التي أحدثها الزلزال والتسونامي الذي ضرب اليابان شعر بها العالم كله. هل يمكنك التفكير في أي مثال أحدث لأثر الفراشة؟

ومن المحتمل أن انطباعك (كأمريكي) عن الدول العربية وغالبية سكانها المسلمين كان مختلفاً كثيراً قبل الربيع العربي عما هو حالياً. الآن، قد تجد نفسك تشعر بدفعة قوية لتقدير الديمقراطية أو بشعور أكثر انفتاحاً عما قبل للتعرف أكثر على الإسلام أو لدراسة اللغة العربية. وربما حتى يتكون لديك الحافز لتتخذ أنت بنفسك أفعالاً لمساعدة أنواع التغيير التي تحدث في تونس وغيرها من الدول العربية. بهذا الشكل، فأنت وكثيرون غيرك قد شعرتهم بأثر أفعال بوعزيزي.

وهناك درس مهم في علم الاجتماع هو أنك لست فقط المتأثر بالأحداث ولكنك قادر أيضاً لدرجة ما على امتلاك تأثير على الأبنية والعمليات واسعة النطاق. يمكننا رؤية هذا كمثل لـ «أثر الفراشة Butterfly

«Effect» (Lorenz, 1995). وبينما يتم تطبيقه بشكل عام على الظواهر الفيزيائية الملموسة، فإن أثر الفراشة قابل للتطبيق أيضاً على الظواهر الاجتماعية (Daipha, 2012). الفكرة هي أن تغييراً صغيراً نسبياً في مكان محدد يمكن أن يكون له تأثيرات واسعة النطاق - وحتى عالمية - عبر كل من الزمن والمسافة. على سبيل المثال، أفعال بو عزيزي ساعدت في أن تؤدي إلى الثورة التونسية، والتي قادت بدورها إلى مظاهرات شوارع وحرب أهلية في أماكن أخرى بالعالم، تتضمن اليمن، ومصر، وليبيا، وسوريا (Kienle, 2012; Warren, 2012 & Noueihed).

توابع هذه السلسلة من الأحداث تم الشعور بها عند هذا الوقت وما تزال قيد الظهور والانكشاف. ومع ذلك، فهي بالتأكيد تتضمن التغيرات الكبرى التي حدثت في تلك المجتمعات وكذلك احتمال إعادة تنظيم التحالفات السياسية الدولية الكبرى. وربما أدت أيضاً إلى زيادة أو تناقص فرص العلاقات الشخصية والاجتماعية، والتجارية بين الناس في العالم العربي وفي الغرب. وربما ستتأثر سفينة حياتك وعملك بثورات الربيع العربي. والأكثر أهمية أنه من الممكن جداً أن الأفعال التي ستقوم بها في مدار حياتك سيكون لها تأثيرات واسعة النطاق، وربما عالمية.

وهناك مثال اجتماعي مختلف جداً لأثر الفراشة يتضمن الزلزال ذي (9) درجات على مقياس ريختر الذي هز اليابان لأكثر من ست دقائق عام (2011). فبينما كان ذلك حدثاً هائلاً فيما يتعلق باليابان، فقد كان حدثاً صغيراً نسبياً من المنظور العالمي، في البداية على الأقل. الزلزال سبب تسونامي هائل، والذي وصل إلى ارتفاع (124) قدم. وفي وسط الخراب الذي حصل، ما حاز على انتباه العالم كان الضرر الحاصل في مفاعل «فوكوشيما دايشي» للطاقة النووية على شاطئ اليابان المطل على المحيط الهادي. هذا جدال الجدل حول أمان الطاقة النووية مقارنة بمصادر الطاقة الأخرى.

جزر عائمة من الحطام والبقايا البشرية انجرفت إلى البحر بسبب التسونامي حيث كان متوقعاً أن تضرب سواحل أمريكا الشمالية عام 2013 تقريباً وأن تنجرف إلى شواطئ هاواي وشعابها المرجانية لأعوام قادمة (Pacific Research Center, 2011 International) وكميات أخرى من الحطام ستتجمع في «بقعة القمامة الكبرى للمحيط الهادي»، وهي مكان في المحيط الهادي في ضعف حجم ولاية تكساس (Berton, 2007).

هذا الحطام سيمثل مشكلات دائمة لصناعات الملاحة، والصيد، والسياحة - ناهيك عن سكان المناطق الساحلية والمصطافين. والتعطيل في المصانع اليابانية كان له أثر على التعافي الذي كان هشاً بالفعل للاقتصاد العالمي بعد فترة كساد عميق. هذا ربما يفسر الصعوبات التي قد تكون واجهتها عام (2011) في شراء تلك السيارة التويوتا التي أردتها أو آخر إصدار من هواتف الآي فون.

أثر الفراشة. التأثير واسع النطاق وربما العالمي لتغير صغير في مكان معين، عبر كل من الزمان والمسافة.



وظائف الصناعة في الولايات المتحدة انخفضت في عصر ما بعد الصناعة. لماذا يعتبر مكان الصناعة في المجتمع موضوع يهم علماء الاجتماع؟ هذه الأمثلة للعلاقات بين الناس والوقائع والتغيرات الاجتماعية الأكبر تعد الأساس لتعريف الفرع المعرفي الذي سنعرضه في هذا الكتاب. «علم الاجتماع Sociology» هو الدراسة المنظمة للطرائق التي يتأثر بها الناس من - ويؤثرون في - الأبنية الاجتماعية والعمليات الاجتماعية المرتبطة بالجماعات، والمنظمات، والثقافات، والمجتمعات، والعالم الذي توجد فيه.

الطبيعة المتغيرة للعالم الاجتماعي - ولعلم الاجتماع (The Changing Nature of the Social World and Sociology)

يتعامل علم الاجتماع مع الظواهر المعاصرة - كما رأيتم - ولكن له أيضاً اهتمامات عديدة أكثر قدماً بسبب جذوره التاريخية العميقة. في القرن الرابع عشر، مثلاً، قام العالم المسلم عبد الرحمن بن خلدون بدراسة العديد من العلاقات الاجتماعية، تتضمن تلك التي بين السياسة والاقتصاد. كانت الثورة الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من الأشياء ذات الأهمية الخاصة لتأسيس علم الاجتماع. وخلال «عصر الصناعة» هذا، ركز العديد من علماء الاجتماع المبكرين على المصانع، وهؤلاء الذين يعملون فيها، وخصوصاً العمال اليدويون ذوو الياقات الزرقاء. وكذلك، ذهب علماء الاجتماع إلى التركيز على العلاقة بين الصناعة وبقية المجتمع، والتي تتضمن مثلاً الدولة والأسرة.

وبحلول منتصف القرن العشرين، كانت الصناعة في الولايات المتحدة في المراحل المبكرة لانحدار طويل والذي يستمر حتى يومنا هذا. (ومع ذلك، نجد أن التصنيع في أجزاء أخرى من العالم، وبالأخص الصين، يزدهر بقوة). لقد انتقلت الولايات المتحدة من العصر الصناعي إلى «عصر ما بعد الصناعة Postindustrial

«age» (Fitzgerald, 2006 & Leicht؛ Bell, 1973). في الولايات المتحدة، وكذلك في العالم الغربي عموماً، انتقل مركز الاقتصاد وانتباه كثيرين من علماء الاقتصاد من المصنع إلى المكتب. أي أن بؤرة التركيز تحولت من العامل اليدوي ذي الياقة الزرقاء إلى العمل المكتبي ذي الياقة البيضاء (Mills, 1951) وكذلك إلى البيروقراطيات التي يعمل داخلها كثيرٌ من الناس (Weber؛ Lounsbury, 2009 & Clegg, 1968). وشمل هذا أيضاً نمو قطاع الخدمات في الاقتصاد. هذا القطاع يتأرجح بطول الطريق من مقدمي الخدمة ذوي المكانة المرموقة مثل الأطباء والمحامين إلى منظفي المنازل ذوي المكانة الأدنى وهؤلاء الذين يعملون خلف المناضد في مطاعم الوجبات السريعة.

والنشأة الأكثر حداثة لـ «عصر المعلومات» (Castells؛ David & Millwood, 2012) يمكن رؤيتها كجزء من - أو امتداد لـ عصر ما بعد الصناعة. إن المعارف والمعلومات مهمة في هذه الحقبة المعاصرة. إضافة إلى التكنولوجيا - الحواسيب، الهواتف الذكية - التي رفعت بشكل كبير من إنتاجية العمال الفرديين وغيرت طبيعة عملهم. مثال واحد فقط من أمثلة كثيرة هو الاستخدام الحالي للتكنولوجيات المدعومة بالحاسب لعمل تصميمات لكل شيء من شبكات الكهرباء إلى الأقمشة المزخرفة بدلاً من رسمها باليد. وفي الحقيقة ليس العمل فقط هو الذي تأثر بهذه التكنولوجيات الحديثة؛ فكل شخص وكل شيء تأثر بها افتراضياً. وأحد مظاهر هذا العالم التكنولوجي الحديث - جوجل Google - شديد القوة لدرجة أن أحد علماء ثقافة وسائل الإعلام كتب كتاباً عنوانه «جوجل كل شيء» (Vaidhyathan, 2011). ومن ثم، فقد تحول قدر كبير من اهتمام علم الاجتماع إلى الحاسب والإنترنت وإلى هؤلاء الذين يعملون من خلالها (Baym, 2010؛ Dimaggio؛ et al., 2001؛ Scholz, 2013).

وهذا الانتقال من العصر الصناعي إلى ما بعد الصناعي والآن، عصر المعلومات له مضامين شخصية مهمة ولو كنت رجلاً تعيش في العصر الصناعي، كنت ستعمل من أجل المال (الأجر)، وكنت ستفعل ذلك لتكون قادراً على شراء ما تحتاجه وتريده. والنساء العاملات في المجال الخاص كن لدرجة كبيرة يعملن من دون مقابل أو يأخذن أجراً ضعيفاً، كما هي الحال غالباً حتى اليوم. وفي عصر ما بعد الصناعة، يتزايد احتمال أن الرجال والنساء سيكونون راغبين - أو مجبرين - على العمل مقابل لا شيء (Anderson, 2009؛ Ritzer & Terranova؛ Jurgenson, 2010)، كما هو حال الطبيب المتدرب، أو كاتب المدونة، أو المساهم في يوتيوب أو ويكيبيديا. والأشخاص الذين يمتنون مثل هذه الأمور ربما لديهم أمل أن هذا العمل سيكون له في النهاية مردود اقتصادي وربما حتى يؤدي إلى وظيفة بدوام كامل. وفي الواقع، هناك كثيرٌ من الأمثلة لأفراد نجحوا بعد البدء بـ «التبرع» بجهدهم. على سبيل المثال، أعضاء الفرقة الموسيقية (Go OK) التي مقرها لوس أنجليس أوجدوا قاعدة جماهيرهم بناء على فيديوهات مجانية على اليوتيوب وبعد ذلك أسسوا حياة مهنية مزدهرة ذات مردود مالي كبير.

أنت أيضاً قد ترغب في أداء هذا العمل المجاني لأنك تستمتع به ولأن كثيراً مما يعتبر مهماً في حياتك يكون متاحاً مجاناً على الإنترنت بأي شكل. إنك لا تحتاج لشراء الجرائد بينما الملصقات مجانية أو أن تشتري أقراصاً مدمجة وشرائط فيديو بينما يمكنك تشغيل الموسيقى والأفلام أو تحميلها من دون ثمن أو بمقابل زهيد من الإنترنت. وهناك نطاق كامل من البرمجيات يمكن أيضاً تحميلها من دون مقابل. وبينما كل هذا - وكثير غيره - متاح دون ثمن، فإن المشكلة هي أن ضروريات الحياة - الغذاء، والمأوى، والملبس - ما تزال تكلف المال، وكثيراً من المال.